بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم –.

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدى هدي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

وبعد : فحي هلا بالإخوان، ونسأل الله –جل في علاه– أن يجعلني وإياكم ممن يستمع القول فيتبع أحسنه، وأن يبارك في الأوقات والأعمار والأعمال.

وقبل أن نبدأ بشرح الكتاب الموسوم بالموقظة، للحافظ الإمام الذهبي–رحمه الله تعالى–، أرغب في التقديم بثلاث مقدمات، تعين إن شاء الله الراغب والطالب للحق، وبخاصة طالب الحديث تعينه في السير إلى الله ﷻ.

أولى تلك المقدمات : مقدمات يحتاج إليها طالب العلم والحديث خاصة، فلا زال العلماء ﷺ قديمًا وحديثًا ، يُعْنَوْنَ بتنبيه الطالب على آداب الطلب، والطريقة التي يسير فيها في طلبه العلم ، وبخاصة طالب الحديث.

فَقَلَ كتاب من كتب أهل العلم التي عنيت بالكلام في مباحث علم أصول الحديث، إلا وتجد فيها بابًا أو كتابًا من كتبها يتكلم عن آداب طالب الحديث والمحدث، خطى لا بد أن يسير عليها حتى يسلك مسالك أهل العلم .

ومنهم من أفرد ذلك بمؤلفات مفرده ، كالحافظ ابن عبد البر ﷺ في كتابه (جامع بيان العلم وفضله)، والحافظ الخطيب البغدادي ﷺ في (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع) وغيرهما كثير، وما ذلك إلا لأهمية أن تصاحب الطالب أو أن تصاحب الطالبة هذه الآداب ، وبدونها فلا رونق للعلم ولا حلاوة ، ومن تخلى عنها تخلى عن العلم حقيقة .

فهناك آداب للطالب مع نفسه ومع شيخه ومع إخوانه، وهناك آداب مع ربه ﷻ ، فأشير إلى جملة من ذلك تأسيًا بسنة من سلف من أئمة هذا الدين وسيرًا على منوالهم .

فمن تلكم الآداب الأولى والواجبة :

– الإخلاص لله ﷻ : وتحقيق الإخلاص له–جل في علاه، طلب العلم أيها الأخوة عبادة لا يجوز أن يصرف العبد قلبه لغير الله ﷻ ، فلا بد والحالة هذه أن يخلص في طلبه للعلم لله ﷻ ، فهو داخل تحت قول الله ﷻ: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ}(البينة:٣١).

ولا يأتوا الحاثة والآمرة في وجوب الإخلاص لله ﷻ كثيرًا وكثيرة جدًا، وكذا الأحاديث النبوية عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وهنا كلمة للحافظ ابن الجوزي في صيد الخاطر ذكرها فقال : « من أصلح سريرته فاح عبير فضله ، وعبقت القلوب بنشر طيبه . فالله الله في السرائر ، فإنه لا ينفع مع فسادها صلاح ظاهر » .

فمعاهدة النفس أيها الأخوة في الإخلاص لله ﷻ وفي تحقيقه أمر مطلوب في كل عبادة لله ﷻ ، والتي منها طلب العلم وإزالة الجهل عن النفس وعن الغير، والكلام في هذا الباب كثير وكثير جدًا .

– و الأدب الثاني : أيها الأخوة هو المتابعة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، قال الله ﷻ في كتابه العزيز: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}(آل عمران:٣١)، والآيات الآمرة بطاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كثيرة .

وقد جاء عن سفيان الثوري ﷺ أن قال : « إن استطعت أن لا تحك رأسك إلا بأثر فافعل » ، مبالغة في التأسي و البحث عن سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، والتنقيب عن الثابت منها .

وجاء أيضًا عن إبراهيم الحربي ﷺ أن قال : « ينبغي للرجل إذا سمع الحديث أن يعمل به » ، وهذا أيها الأخوة مأخوذ من قول الله ﷻ :{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}(الحشر:٧) ، فالمتابعة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ خيرٌ للعبد في الدنيا والآخرة.. فطالب العلم والحديث خاصة لابد أن يتميز بالإتباع للمصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ،إذ ما الفائدة من تَعَلُّمِه للسنة والعلم الشرعي ولا يتبع ، فهوكما قال ابن عيينة ﷺ : « العلم إن لم ينفع ضر » ،كيف يضر؟ يضر بعدم الإتباع وترك المأمورات وفعل المحظورات .

والوصية الثالثة والأدب الثالث : أيها الأخوة التحلي برونق العلم، فمن تعلم علمًا يجب أن يكون ذلك في سلوكه وهديه ودلّه وسمته، فلا يحسن بطالب العلم أن يكون يرعى مع الرعاع والهمج والغوغاء، ويركض خلف كل ناعق، بل لا بد أن يتحلى برونق العلم وما تعلمه من آداب وهدي وخلق وسمت وسنة .

وفي ذلك يقول ابن سيرين–رحمه الله تعالى–: « كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم » ، فلا خير في متعلم لا تظهر مسحة العلم على آثاره وعلى مسلكه .

إذا التحلي بذلك دليل على أن الرجل أو الطالب يعمل بعلمه ، وهذا من آثار العلم الصحيح .

قال الحافظ الخطيب ﷺ في تقييد العلم : « العلم شجرة والعمل ثمرة » ولابُد ، فإذا كان العبد قريبًا من الله ﷻ بتحقيق ما تعلم وتعليم غيره ورفع الجهل عن نفسه وعن غيره ، فهذا الذي يسير في ركاب أهل العلم وفي طريقهم .

و الأدب الرابع : الجد و الاجتهاد في طلب العلم والصبر على ذلك ،قال قائلهم :

الجِد بالجد والحرمان بالكسل *** فانصَب تُصب عن قريب غايَة الأمل

لابد من الاجتهاد و الجد في طلب العلم والصبر على ذلك .

يقول الإمام الشعبي ﷺ لما سئل من أين وجدت هذا العلم الكثير ، فقال : « بنفي الاعتماد » ما يتكل على غيره بنفسه ، « والسير في البلاد » يعني في الرحلة في طلب العلم ، « وبكور كبكور الغراب » يصبح ويبكر في حلق العلم ، « وصبر كصبر الجماد » بذا حصَّل وصار إمامًا ، قال : « بنفي الاعتماد والسير في البلاد وبكور كبكور الغراب وصبر كصبر الجماد » بذا حصلوا .

ولذا لما قيل للإمام عبد الله بن المبارك : « إلى متى تطلب العلم ؟ ، قال: إلى أن أموت » ، وهذا الحافظ الإمام عبد الله بن المبارك الذي جمعت فيه خصال الخير ، والمثل السائر المعروف الذي يعرفه الكثير، قالوا : « طلب العلم من المحبرة إلى المقبرة » .

وهكذا يجب أن يكون العبد مجتهدًا في طلبه للعلم محصلًا ، يكتب ، يدرس يتذاكر مع إخوانه ، يراجع ، يُحضِّر ، هكذا يستفيد العبد في تلقيه للعلوم .

والوصية التي بعد هذا أيها الأخوة : تجنب المعصية وترك المحرمات ، فإن العبد والله يحرم العلم ، ما يتعلمه بالذنب يعمله .

أخرج أبو نعيم في الحلية بسنده عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال : « إني لأحسب الرجل ينسى العلم يتعلمه بالخطيئة يعملها » وفي رواية « بالذنب يعمله » ، فقد تحرم الخير والعلم بسبب الذنب ، ولا يعني هذا أن يكون الذنب ظاهرًا ، قد يكون خفيًا :

إذا ما خلوت الدهـــر يومًا *** فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب

وأيضًا أخرج ابن حبان في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، عن وكيع بن الجراح الرؤاسي ﷺ أنه قال : « كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به، وعلى طلبه بالصوم » ، .. وفي لفظه (كنا) جمع أي هذا الديدن الذي كانوا عليه، فأنت تراهم في طلبهم للحديث وفي حفظهم له يدورون في ماذا ؟ يدورون في طاعات ، « كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به » والعمل به ماذا طاعة أو ليس بطاعة ؟ طاعة، قال : « وعلى طلبه بالصوم » والصوم أيضًا طاعة لله ﷻ لأن الطاعة تدل على أختها، كما قال ابن مسعود ﷺ فيما خَرَّجَه ابن أبي شيبة في مصنفه .

فالشاهد : أيها الأخوة أن طلب الحديث وطلب العلم، يجب لصاحبه أن يكون ماذا ؟ مجانبًا للمحرمات مجتنبًا لها ساعيًا باذلًا في فعل الطاعات .

أخرج الخطيب ﷺ بسنده عن يحيى بن معين أنه قال : « آلة المحدث الصدق، والشهرة، والطلب، وترك البدع، واجتناب الكبائر » ، آلة المحدث أو طالب الحديث (الصدق) في القول والفعل ، (والشهرة) يُعرف بالخير ويشتهر بطلبه للعلم وتحصيله ومنفعته للناس، (والطلب) وحرصه على طلب العلم ، (وترك البدع و اجتناب الكبائر) لأنها إذا اجتمعت في العبد لا يمكن أن يكون طالبًا ولا أن يكون صادقًا في طلب العلم ، أي إذا اجتمعت هذه من ماذا ؟ من ترك الصدق و فعل و العياذ بالله الموبقات أو المحرمات و فعل البدع و غير ذلك ، يعني ضد ذلك لا يجتمع في ماذا ؟ في طالب الحديث أو آلة المحدث .

إذا كان الأمر كذلك أيها الأخوة ، إذًا حَرِيٌّ بطالب الحديث وبطالب سنة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أن يجتنب هذه الموبقات أو هذه المهلكات .

الوصية الأخيرة : في جملة هذه الوصايا أن يتذكر العبد في طلبه لهذا العلم، أنه ما طلبه إلا رغبة في رضا الله ﷻ والفوز بجنته ﷺ ، ومصاحبة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ في الجنة ، فهذا السبيل وهذا الطريق – اي طريق طلب العلم – هو الموصل إلى ذلك.

قال الحافظ ابن القيم ﷺ : « يعرض للسالك في سيره إلى الله مهالك ومعاطب، لا ينجيه منها إلا بصيرة العلم » ، والعلم المراد به هنا علم الكتاب والسنة ، العلم الصحيح :

العلم قال الله قال رسولُه *** قال الصحابةُ هم أولوا العرفان

هذا هو العلم .

أقول : فإذا تذكر العبد ذلك وأن الغاية والمقصد الأسمى من طلبه للعلم هو تحقيق العبودية لله ﷻ والفوز بجنة الله ﷻ ، هان الخطب .

ولا بد أن تعلموا أيها الأخوة أن من صدق مع الله صَدَقَه الله ، فقد صح عن النبي– عليه الصلاة والسلام – فيما خرجه البخاري في الصحيح : « أن الأعمال بالخواتيم » ، و أذكر في هذا الباب قصة و هي بإذن الله تشحذ الهمم و تعليها :

أخرج ابن أبي حاتم في تقدمة الجرح والتعديل ، والحاكم في معرفة علوم الحديث ، و ابن البنا في فضل التهليل و ثوابه الجزيل ، بسند حسن إلى محمد بن مسلم بن وارة قال : « حضرت أنا و أبو حاتم الرازي – محمد ابن إدريس الحنظلي– و المنذر ابن شاذان عند أبي زرعة في الترع » (عند نزع الروح و على فراش الموت) .

قال : فقلت لأبي حاتم : « تعال حتى نلقنه الشهادة »،

فقال أبو حاتم : « إني لأستحي من أبي زرعة » لماذا يستحون ؟ إمام جهبذ حافظ ناقد ، إن لم يكن مثلهم فهو أعلى منهم في الرتبة والمكانة .

قال : « إني لأستحي من أبي زرعة و لكن تعال نتذاكر حديث الشهادة فلعله يذكره ».

فقال محمد بن مسلم بن وارة : (حدثنا أبو عاصم النبيل قال : حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن صالح) قال : (فارتج عليَّ الحديث فكأني ما قرأته ولا سمعته.

ما استطاع أن يكمل هيبة من الإمام أبي زرعة .

قال : فقال أبو حاتم : « حدثنا محمد بن بشار قال : حدثنا ابو عاصم النبيل عن عبد الحميد بن جعفر عن صالح » ، قال : « فارتج علي الحديث فكأني ما قرأته ولا سمعته » ، فقال مثله الحافظ المنذر بن شاذان .

ففطن إليهم أبو زرعة أنهم أرادوا أن يلقنوه حديث الشهادة ، فقال وهو في فراش الترع :

حدثنا محمد بن بشار قال : حدثنا أبو عاصم النبيل عن عبد الحميد بن جعفر عن صالح بن أبي عريم عن كثير بن مُرّة عن معاذ بن جبل ﷺ أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قال : « من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله » .

قال : « فخرجت روحه مع الهاء » وتتمة الحديث « دخل الجنة » .

صدقوا مع الله فصدقهم الله ﷻ .

إذًا من هذه القصة وأمثالها كثير في سير السلف ، نعلم أن الصدق مع الله ﷻ في طلب العلم هو منجاة لصاحبه في الدنيا والآخرة .

وقد ذكر الحافظ الإمام ابن كثير ﷺ في البداية والنهاية ، في ترجمة الإمام ابن تيمية – رحمة الله عليه – .. وهو كان في السجن الذي سجن فيه في فاته وكان معه أخاه ، قال أخوه : « ختمت أنا وشيخ الإسلام القرآن ثمانين ختمه » في السجنة الأخيرة .

قال : « فشرعنا في الواحدة والثمانين ، ولما وصل شيخ الإسلام عند قول الله ﷻ :{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ}(٥٥:القمر) ، خرجت روحه عند هذه الآية » .

*****

إذًا أيها الأخوة هذه هي الحصيلة والمُحصلة الصدق مع الله ﷻ في الدنيا نجاة لصاحبه بإذن الله في الآخرة ، وحَرِيٌّ بطالب الحديث أن يسير في ركاب أولئك ، وأن يشتغل بما اشتغلوا به ليُحّصل ما حصّلوه .

أسأل الله أن ينفع الجميع بمثل هذه الوصايا التي قلناها..

*****

وهذه المادة مأخوذة من شرح الشيخ عبد الله بن عبد الرحيم البخاري–حفظه الله تعالى– لمتن الموقظة للإمام الذهبي رحمه الله تعالى:
(دورة جدة ١٤٢٤هـ/ ١٤٢٥هـ).

آداب ووصايا لطالب العلم

فضيلة الشيخ الدكتور
عبد الله بن عبد الرحيم البخاري
عضو هيئة التدريس في كلية الحديث بالجامعة الإسلامية